

بِسْمِ اللَّهِ الْوَاحِدِ

الْأَحَدِ

شُبُهَاتٌ حَوْلَ

الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

د. محمد عمارنة

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على المبعوث رحمة للعالمين ، و على آله و
صحابته أجمعين ، و من اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

و بعد . .

فلقد تذكرت ، عندما قرأت الأسئلة العشرة ، التي تدور حول "شبهات" يثيرها خصوم الإسلام ، أو الجاهلون بحقيقة ، إزاء القرآن الكريم . . . تذكرت سنة الله ، التي لا تبدل لها و لا تحويل . . سنة التدافع الفكري بين الحق و الباطل على امتداد التاريخ الإنساني ، عبر الثقافات و الحضارات . .

هذا التدافع الفكري هو السبيل الحافز لتبيّغ دعوة الحق ، و إقامة الحجة على صدقها ، و إزالة الشبهات عنها . . و في ذلك أداء لفريضة التي افترضها الله ، سبحانه و تعالى ، على كل الذين أنعم عليهم بنعمة الإسلام .

بل إن هذا التدافع الفكري هو السبيل لتنشيط ملكات و طاقات العقل المسلم ، كي يواكب المستجدات في ميادين هذا التدافع . . فكل عصر شبهاته ، و لكل مذهب من المذاهب الضالة سهامه التي يصوبها نحو الحق و أهله . . و صدق الله العظيم : **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً شَيَاطِينَ النَّاسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقُوْلُ عُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَدَرْهُمٌ وَمَا يَقْتُرُونَ}** (الأنعام : 112) .

و المسلمين إذا لم يهتموا بالنظر في الشبهات التي يثيرها خصوم - المغرضون منهم و خصوم - حول القرآن و علومه ، و السنة النبوية و علومها ، و الإسلام و حضارته و أمته ، سيصاب عقولهم بالكسل و التبلد ، و ستغفهم الشبهات الباطلة ، الأمر الذي يزعزع يقينهم الإيماني . . و ذلك فضلاً عن تفريطهم في فريضة إقامة الدين ، و تبليغ دعوته ، و إقامة حجته ، و إزالة الشبهات عن عقائده و شريعته و مبادئه و قيمه . .

و لقد علمنا القرآن الكريم أن هذا التدافع الفكري هو السبيل للتقدم ، و انتصار الحق على الباطل ، و حلول الصلاح محل الفساد **{وَلَوْلَا دَقَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}** (البقرة : 251) ، **{وَلَوْلَا دَقَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِمَتْ صَوَامِعٌ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَتَصْرُنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ}**

إِنَّ اللَّهَ لَغَوِيٌّ عَزِيزٌ} (الحج : 40) ، {وَمَنْ أَحْسَنَ قَوْلًا مِمْنَ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} (33) وَلَا تَسْتُوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ إِذْ فَعَلَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَانَهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} (فصلت : 34,33)

كذلك يعلمنا القرآن الكريم ضرورة الاهتمام بما يشيره الآخرون حول الإسلام ، و انظر فيه ، و دفع باطله بالحق الذي نتعلمه من فقه الإسلام . . فالقرآن لم يتجاهل الشبهات التي أثارها المشركون ضده - فضلاً عن أن يصادرها - و إنما تتبعها ، و ذكرها في سورة و آياته ، و قام بتفنيدها ، حتى ما كان منها متهافتا . . استوت في ذلك شبهاهات أهل الكتاب - من اليهود و النصارى - مع شبهاهات المشركين و الدهريين . . لقد كان القرآن الكريم هو الذي يسعى لاستنطاق الخصوم ما لديهم من "علم" أو "أثارة من علم" أو "برهان" على هذا الذي يعتقدون : {فَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُمْ مُنْظَرُونَ} (الأنعام : 148) ، {السَّمَاءُ مَنْ يَرَى مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةً مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (الاحقاف : 4) ، {فَلَمْ يَرَوْهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (البقرة : 111) .

بينما كان مذهب المشركين و منهاجمهم هو التجاهل و عدم الاستماع و الصد و الصدود عن سماع القرآن . . كانوا يقولون لأتبعهم : {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا لِهَذَا الْقُرْآنَ وَالْغُوا فِيهِ لَعْلَكُمْ تُغْلِبُونَ} (فصلت : 26) .

لذلك كله ، كان إقبالى على الإجابة عن هذه الأسئلة العشرة - التي قدمت نماذج متنوعة لما يثار حول القرآن الكريم من شبهاهات - لوناً من أداء الواجب الجامع بين المهمة العلمية و الرسالة الدينية معا . .

و أرجو الله ، سبحانه و تعالى ، أن يكون الصواب حليفى في هذه الإجابات . . و ان يجعل الجهد الذي بذلته في ميزان حسناتى ، و ميزان حسنات الذين يفهون هذه الإجابات على هذه الشبهاهات . . إنه سبحانه أعظم مسئول و أكرم مجتب .

و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه من والاه .

الشَّبَهَةُ الْأُولَى

يعطي القرآن معلومات مختلفة عن خلق الإنسان . . من ماء مهين (77 : 1) (20 من ماء 30 : 21) . . من نطفة (36 : 77) . . من طين (32 : 7) . . من علق (96 : 2) . . حماً مسنون (15 : 27) . . لم يك شيئاً (19 : 67) . .
فكيف يكون كل ذلك صحيحاً في نفس الوقت؟

الجواب:

ليس هناك أدنى تناقض - بل و لا حتى شبّهه تناقض - بين ما جاء في القرآن الكريم من معلومات عن خلق الإنسان . . و حتى يتضح ذلك ، يلزم أن يكون هناك منهج علمي في رؤية هذه المعلومات ، التي جاءت في عديد من آيات القرآن الكريم . . و هذا المنهج العلمي يستلزم جمع هذه الآيات . . و النظر إليها في تكاملها . . مع التمييز بين مرحلة خلق الله للإنسان الأول - آدم عليه السلام - و مرحلة الخلق لسلالة آدم ، التي توالّت و تكاثرت بعد خلق حواء ، و اقترانها بآدم ، و حدوث التنااسل عن طريق هذا الاقتران و الزواج .

لقد خلق الله ، سبحانه و تعالى ، الإنسان الأول - آدم - فأوجده بعد أن لم يكن موجوداً . . أي أنه أصبح "شيئاً" بعد أن لم يكن "شيئاً" موجوداً . . و إنما كان وجوده فقط في العلم الإلهي . . و هذا و معنى الآية الكريمة : **{أَوْلَا يَذَكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَا مِنْ قَبْلٍ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئاً}** (مريم : 67) .
أما مراحل خلق الله ، سبحانه و تعالى ، لآدم . . فقد بدأت بـ(التراب) الذي أضيف إليه (الماء)
فصار (طينا) ثم تحول هذا الطين إلى (حماً) أي أسود متن ، لأنّه تغير - و المتغير هو
(المسنون) - فلما يبس هذا الطين - من غير أن تمسه النار - سمي (صلصالاً) - لأن الصلصال
هو الطين اليايس - من غير أن تمسه نار - و سمي صلصالاً لأنّه يصل ، أي يصوت ، من يبسه
- أي له صوت و رنين . .

و بعد مراحل الخلق هذه - التراب . . فالماء . فالطين . . فالحماً المسنون . . فالصلصال . .
نفح الله ، سبحانه و تعالى ، في مادة الخلق هذه من روحه ، فغدا هذا المخلوق "إنساناً" هو آدم ،
عليه السلام .

و عن هذه المراحل تعبّر الآيات القرآنية فكتّاب تكامل المراحل - و ليس التعارض المتصوّم
الموهوم - فنقول هذه الآيات الكريمة : **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلَ آدَمَ خَلْقَهُ مِنْ تُرَابٍ}** (آل عمران : 59) - فبالتراب كانت البداية .

{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَا خَلْقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ} (السجدة : 7) ، و ذلك عندما أضيف
الماء إلى التراب **(فَاسْتَقْتَمُهُمْ أَهْمَ أَشْدُ خَلْقًا لَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ)** الصفات :
(11) - و ذلك عندما زالت قوة الماء عن الطين فأصبح "لازباً" ، أي جاماً .

و في مرحلة تغيير الطين ، و اسوداد لونه ، و نتن رائحته ، سمي (حماً مسنوناً) ، لأنّ الحماً هو
الطين الأسود المتن .

و المسنون هو المتغير بينما الذي (لم يتغير) هو الذي لم يتغير . . و عن هذه المرحلة عبرت
الآيات : **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَاءٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَا مِنْ قَبْلٍ مِنْ نَارٍ**
السَّمُومَ (27) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَاءٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا
سَوَيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِنَّا
إِلَيْسَ أَبْيَ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31) قَالَ يَا إِلَيْسُ مَا لَكَ أَنَا تَنَوَّنَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قَالَ
لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَاءٍ مَسْنُونٍ (33) قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34)
وَإِنَّ عَلَيْكَ اللِّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35)} (الحجر : 26-35).

تلك هي مراحل خلق الإنسان الأول ، توالى فيها تتابعت و تكاملت المصطلحات : التراب . . . و الماء . . . و الطين . . . و الحما المسنون . . . و الصلصال . . . دونما أي شبهة للتعارض أو التناقض . . .

و كذلك الحال و المنهاج مع المصطلحات التي وردت بالأيات القرآنية التي تحدث عن خلق سلالة آدم عليه السلام . . .

فكما تدرج خلق الإنسان الأول - آدم - من التراب . . . إلى الطين . . . إلى الحما المسنون . . . إلى الصلصال . . . حتى نفح الله فيه من روحه . . . كذلك تدرج خلق السلالة و الذرية . . . بدءاً من (النطفة) - التي هي الماء الصافي - و يعبر بها عن ماء الرجل - (المني) - . . . إلى (العلقة) - التي هي الدم الجامد ، الذي يكون منه الولد ، لأنه يعلق و يتعلق بجدار الرحم . . . إلى (المضغة) - و هي قطعة اللحم التي لم تتضخ ، و المماثلة لما يمضغ بالفم - . . . إلى (العظماء) . . . إلى (اللحم) الذي يكسو العظام . . . إلى (الخلق الآخر) الذي أصبح - بقدرة الله - في أحسن تقويم(3)

و من الآيات التي تحدثت عن توالي و تكامل هذه المراحل في خلق و تكوين نسل الإنسان الأول و سلالته ، قول الله ، سبحانه و تعالى : **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلْقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُضْغَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرُ مُخْلَقَةٍ لِتُبَيَّنَ لَكُمْ وَتَقُرُّ فِي الْأَرْضِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجْلِ مُسَمٍّ ثُمَّ تُخْرِجُكُمْ طَقْلَانِ ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشْدَكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَقَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذلِ الْعُمُرِ لِكِتَابٍ يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمِ شَيْءًا}** (الحج : 5).

و قوله ، سبحانه : **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا النَّاسَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَا نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلْقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا أُخْرَى فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}** (الؤمنون : 12-14).

و إذا كانت (النطفة) هي ماء الرجل . . . فإنها عندما تختلط بماء المرأة ، توصف بأنها (أمشاج) - أي مختلطة - كما جاء في قوله تعالى : **{إِنَّا خَلَقْنَا النَّاسَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجَ نَبْتَلِيهُ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}** (الإنسان : 2).

كما توصف هذه (النطفة) بأنها (ماء مهين) لقلتها و ضعفه . . . و إلى ذلك تشير الآيات الكريمة : **{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَا خَلْقَ النَّاسَ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَهِينٍ}** (السجدة : 8-7).

{أَلَمْ تَخْلُقُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدْرِ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنَا فَقْعَمَ الْقَادِرُونَ} (المرسلات : 23-20).

و كذلك ، وصفت (النطفة) - أي ماء الرجل - بأنه (دافق) لتدفقه و اندفاعه . . . كما جاء في الآية الكريمة : **{فَلَيَنْظُرِ النَّاسُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلُقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقَ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالْتَّرَابِ (7)}** (الطارق : 7-5).

هكذا عبر القرآن الكريم عن مراحل الخلق . . . خلق الإنسان الأول . . . و خلق سلالات و ذريها هذا الإنسان . . . و هكذا قامت مراحل الخلق ، و المصطلحات هذه المراحل ، شواهد على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم . . . عندما جاء العلم الحديث ليصدق على هذه المراحل و المصطلحاتها ، حتى لقد انبهر بذلك علماء عظام فاهتدوا إلى الإسلام . . .

فكيف يجوز - بعد ذلك و معه - أن يتحدث إنسان عن وجود تناقضات بين هذه المصطلحات . . . لقد صدق الله العظيم : **{أَفَلَا يَتَبَرَّوْنَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}** (النساء : 82).

- (1) الآيات التي تحدثت عن "الماء المهين" هي في السورة (32 : 8) و (20 : 77) .
- (2) انظر معاني المصطلحات الواردة في هذه الآيات في : الراغب الأصفهاني ، أبو الفاسد الحسين بن محمد (المفردات في غريب القرآن) طبعة دار التحرير - القاهرة - سنة 1991م . و (لسان العرب) - لابن منظور - طبعة دار المعرفة - القاهرة .
- (3) انظر في معاني هذه المصطلحات (المفردات في غريب القرآن) - مصدر سابق .
-

الشَّبَهَةُ الثَّانِيَةُ

يوضح القرآن أن الله لا يغفر أن يشرك به (4 : 48) . و مع ذلك فقد غفر الله لإبراهيم ، عليه السلام ، بل جعله نبياً رغم أنه عبد النجوم و الشمس و القمر (6 : 78-86) . فما الإجابة؟

الجواب:

الشرك محبط للعمل : {قُلْ أَفَغَيْرُ اللَّهِ تَأْمُرُونَيْ أَعْبُدُ أَيْهَا الْجَاهِلُونَ} (64) ولقد أوحى إلينك وإلى **الذين من قبلك** لئن أشركت ليحيطن عملك ولتكونن من الخاسرين (65) بل الله فاعبده وكُن من **الشاكرين** {الزمر : 64-66} ، {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَ إِثْمًا عَظِيمًا} {النساء : 48} .

و الأنبياء و الرسل هم صفة الله من خلقه ، يصطففهم و يستخلاصهم ، و يصنعهم على عينه ، و ينزعهم - حتى قبل البعثة لهم و الوحي إليهم - عن الأمور التي تخل بجدرانهم للنبوة و الرسالة . و من ذلك الشرك ، الذي لو حدث منهم و افترفوه لكان مبرراً لغيرهم أن يفترفه و يقع فيه . . . و لذلك ، لم يرد في القرآن الكريم ما يقطع بشرك أحد الأنبياء و الرسل قبل بعثته . . . بمن في ذلك أبو الأنبياء و خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام . .

أما الآيات التي يشير إليها السؤال . . . و هي قول الله ، سبحانه و تعالى : **وَكَذَلِكَ ثُرِيَ إِبْرَاهِيمَ**

مَلْكُوت السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقَنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكِبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ نَا أَحِبُّ الْأَفْلَيْنَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازَ غَاءَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَنِّي لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازَ غَاءَ قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ يَا قَوْمَ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَتِّيْقَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) وَحَاجَةُ قَوْمِهِ قَالَ أَتَحْاجِجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسَعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفْلَى تَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنْكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا أَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِنْ نَشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} (الأنعام : 83-74)

أما هذه الآيات ، فليس فيها دليل على أن إبراهيم ، عليه السلام ، قد مر بمرحلة شرك ، و حاشا له أن يقع في ذلك ، وإنما هي تحكي كيف آتى الله إبراهيم الحجة على قومه .. حجة التوحيد ، و دحض الشرك .. فهي حجاج و حوار يسلم فيه إبراهيم جدلا - كشأن الحوار - بما يشرونون ؛ ليُنْقض هذا الشرك ، و يقيِّم الحجة على تهابي ما به يحتاجون ، و على صدق التوحيد المركوز في فطرته .. ليخلص من هذا الحوار و الحاج و الاحتجاج إلى أن الخيار الوحيد المتبقي - بعد هذه الخيارات التي سقطت - هو التوحيد .. فهو حوار التدرج من توحيد الفطرة إلى التوحيد القائم على المنطق و البرهان و الاستدلال ، الذي فند دعوى و حجج الخصوم .. الاستدلال اليقيني - **{وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقَنِينَ}** - و ليس فيه انتقال من الشرك إلى التوحيد .. تلك هي الحقيقة التي رجحها المفسرون :

فالقرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (671هـ 1273م) يقول في تفسيره

(الجامع لأحكام القرآن) - مورداً للآراء المختلفة حول هذا الموضوع :

" قوله تعالى: "قال هذا ربِّي" اختلف في معناه على أقوال؛ فقيل: كان هذا منه في مهلة النظر وحال الطفولية وقبل قيام الحجة؛ وفي تلك الحال لا يكون كفر ولا إيمان ...
وقال قوم: هذا لا يصح؛ وقلوا: غير جائز أن يكون الله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو الله تعالى موحد وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء. قلوا: وكيف يصح أن يتوجه هذا على من عصمه الله وآتاه رشده من قبل، وأراه ملكته ليكون من الموقنين، ولا يجوز أن يوصف بالخلو عن المعرفة، بل عرف الرب أول النظر. قال الزجاج: هذا الجواب عندي خطأ

و غلط من قال؛ وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال: **"وَاجْنَبْنِي وَبْنِي أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ"** إبراهيم: 35 " وقال جل و عز: **"إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقُلْبٍ سَلِيمٍ"** "الصافات: 84 " أي لم يشرك به قط .

لقد قال "هذا ربى" على قول قومه ؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر؛ ونظير هذا قوله تعالى: **"لَيْنَ شَرْكَائِي"** "النحل: 27" وهو جل وعلا واحد لا شريك له. والمعنى: ابن شركائي على قولكم . . .

وقيل: إنما قال "هذا ربى" لتقدير الحجة على قومه فأظهر موافقتهم؛ فلما أفل النجم قرر الحجة وقال: ما تغير لا يجوز أن يكون ربا. وكانوا يعظمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها. وقال الناس: ومن أحسن ما قيل في هذا ما صح عن ابن عباس أنه قال في قول الله عز وجل: **"نُورٌ عَلَى نُورٍ"** [النور: 35] قال: كذلك قلب المؤمن يعرف الله عز وجل ويستدل عليه بقلبه، فإذا عرفه أزداد نورا على نور؛ وكذا إبراهيم عليه السلام عرف الله عز وجل بقلبه واستدل عليه بدلائه، فعلم أن له ربا وخلافا. فلما عرفه الله عز وجل بنفسه أزداد معرفة فقال: **"أَتَحَاجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ"** [الأنعام: 80].

وقيل: هو على معنى الاستفهام والتوجيه، منكرا لفعلهم. والمعنى: أهذا ربى، أو مثل هذا يكون ربا؟ فحذف الهمزة. وفي التزيل **"أَفَبْنَ مَتْ فَهْمَ الْخَالِدُونَ"** [الأنبياء: 34] أي أفهم الخالدون؟
(1)..."

و مع هذا الرأي أيضا الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (467-1075هـ/1144م) صاحب تفسير (الكاف الشاف عن حقائق التزيل و عيون الأقوال) في وجوه التأويل) . . الذي يقول في تفسير هذه الآيات :

"وكان أبوه آزر و قومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدٍ إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلها، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثاً أحدها، وصانعوا صنعتها، مدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائل أحوالها .

{**هَذَا رَبِّي**} قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير مت指控 لمذهبة. لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجي من الشغب، ثم يكرر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجية .

{**لَا أَحُبُّ الْأَقْلَمِينَ**} لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين من حال إلى حال، المتنقلين من مكان إلى آخر، المحتجبين بستر، فإن ذلك من صفات الأجرام .

{**لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي**} { تنبئه لقومه على أنَّ من اتخذ القمر إلَّاهًا وهو نظير الكوكب في الأفول، فهو ضال، وأنَّ الهدىة إلى الحق ب توفيق الله ولطفه .

{**إِنِّي وَجَهْتُ وَجْهَهُ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**} { أي للذى دلت هذه المحدثات عليه وعلى أنه مبتدئها ومبدعها."(2)

و على هذا الرأى أيضاً - من المحدثين - الشيخ عبد الوهاب النجار (1278-1360هـ) -
1941م) - صاحب (قصص الأنبياء) - الذي يقول : "لقد أتى إبراهيم في الاحتجاج لدینه و ترییف دین قومه بطريقه التدرج في الإلزام ، أو التدرج في تكوین العقیدة .."(3) .

ذلك هو موقف إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، من الشرك . . . لقد عصمه الله منه . . . و إنما هي طريقة في الجدال يتدرج بها مع قومه ، منطلاقاً من منطقاتهم ؛ ليصل بهم إلى هدم هذه المنطقات ، و إلى إقامة الدليل العقلي على عقيدة التوحيد الفطرية المركزة في القلوب .

(1)الجامع لأحكام القرآن) ج 7 ص 25 ، 26 . طبعة دار الكتاب العربي للطباعة و النشر - القاهرة سنة 1387 هـ سنة 1967 م .

(2)الكافر) ج 2 ص 30 ، 31 طبعة دار الفكر - بيروت - بدون تاريخ - و هي طبعة مصورة عن طبعة طهران "انتشارات آفتاب - طهران" - و هي الأخرى بدون تاريخ للطبع .

(3)قصص الأنبياء) ص 80 . طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - بدون تاريخ للطبع .

رد الأخـتـ الـكـرـيمـةـ أـمـ حـسـينـ

بـسـمـ اللهـ وـ الصـلـاـةـ وـ السـلـامـ عـلـىـ رـسـوـلـ اللهـ
تـحـبـةـ طـيـةـ لـلـجـمـيـعـ. أـرـغـبـ فـيـ أـسـجـلـ مـشـارـكـةـ مـتـوـاضـعـةـ أـرـجـوـ أـنـ تـكـوـنـ ذـاتـ فـائـدـةـ بـاـذـنـهـ
تـعـالـىـ.

تـكـرـرـ ذـكـرـ ماـ يـدـعـهـ بـعـضـهـ بـأـنـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ يـعـطـيـ مـعـلـومـاتـ مـخـلـفـةـ عـنـ خـلـقـ الـإـسـلـانـ. وـ قـ

تـكـرـمـ الـدـكـتـورـ هـشـامـ عـزـمـيـ بـالـقـيـامـ بـجـهـدـ مـبـارـكـ - نـدـعـوـ اللهـ أـنـ يـجـعـلـهـ فـيـ مـيـزـانـ حـسـنـاتـهـ - وـ هـوـ
عـرـضـهـ لـكـتـابـ)ـ شـبـهـاتـ حـوـلـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ)ـ بـقـمـ دـ. مـحـمـدـ عـمـارـةـ. مـشـارـكـتـيـ تـكـمـنـ فـيـ وـضـعـ

فهــي لــمــراــحــل صــنــع الفــخــار مــن مــنــطــلــق أــنــي خــرــافــة أــي أــعــمــل بــالــطــيــن و بــالــفــخــار. كــبــادــيــة أــقــوــل أــنــ ما ذــكــرــه الدــكــتــور عــمــارــة صــحــيــحــ لــكــنــ يــنــقــصــهــ الشــرــحــ لــغــيرــ العــارــفــينــ بــاـمــوــرــ الطــيــن و بــرــاـحــلــ تــشــكــلــهــ.

اقتبــاســ

"أــمــا مــرــاــحــل خــلــقــ اللــه ، ســبــحــانــه و تــعــالــى ، لــأــدــم . فــنــقــدــ بــدــأــت بــ(ــالــتــرــابــ)ــ الــذــي أــضــيــفــ إــلــيــهــ (ــالــمــاءــ)ــ فــصــارــ (ــطــيــنــ)ــ ثــمــ تــحــوــلــ هــذــاــ الطــيــنــ إــلــىــ (ــحــمــاــ)ــ أــيــ أــســوــدــ مــنــتــنــ ، لــأــنــهــ تــغــيــرــ - وــ الــمــتــغــيــرــ هــوــ (ــالــمــســنــوــنــ)ــ - فــلــمــا يــبــســ هــذــاــ الطــيــنــ - مــنــ غــيرــ أــنــ تــمــســهــ النــارــ - ســمــيــ (ــصــلــصــالــ)ــ - لــأــنــ الــصــلــصــالــ هــوــ الطــيــنــ الــيــابــســ - مــنــ غــيرــ أــنــ تــمــســهــ نــارــ - وــ ســمــيــ (ــصــلــصــالــ)ــ لــأــنــ يــصــوــتــ ، مــنــ يــبــســهــ - أــيــ لــهــ صــوــتــ وــ رــنــيــنــ .".

إــضــافــةــ إــلــىــ الــمــاءــ إــلــىــ الــتــرــابــ يــصــبــحــ طــيــنــاــ هــذــاــ وــاــضــحــ لــلــجــمــيــعــ لــكــنــ الــغــامــضــ هــوــ أــنــ هــذــاــ الطــيــنــ يــجــبــ أــنــ يــتــخــمــرــ وــ يــتــرــكــ فــتــرــةــ فــيــ بــيــئــةــ رــطــبــةــ غــيرــ جــافــةــ وــ ذــكــ منــ أــجــلــ الســماــحــ لــلــكــائــنــاتــ الــعــضــوــيــةــ الــمــجــهــرــيــةــ أــنــ تــتــخــمــرــ وــ تــتــكــاــشــ ، لــأــنــ هــذــهــ الــعــمــلــيــةــ تــجــعــلــ الطــيــنــ لــزــجــةــ أــوــ لــازــبــةــ وــ هــيــ مــاــ وــ صــفــهــاــ كــثــيرــ مــنــ الــمــفــســرــيــنــ بــقــوــلــهــمــ طــيــنــ أــســوــدــ مــنــتــنــ "ــمــنــ حــمــاــ مــســنــوــنــ"ــ ، وــ هــوــ فــيــ الــوــاــقــعــ طــيــنــ مــتــخــمــ (ــلــيــســ بــمــعــنــىــ تــضــاعــفــ حــجــمــهــ كــمــاــ يــفــهــمــ الــبــعــضــ وــ لــكــنــ بــمــعــنــىــ أــنــ الــكــائــنــاتــ الــعــضــوــيــةــ فــيــ الطــيــنــ تــطــلــقــ فــيــهــ مــوــاــدــ مــعــيــنــةــ هــيــ نــتــيــجــةــ عــمــلــيــاتــ الــأــيــضــ وــ التــكــاــشــ مــاــ يــجــعــلــ الطــيــنــ ســهــلــةــ التــشــكــيلــ)ــ . وــ الطــيــنــ فــيــ هــذــهــ الــحــالــةــ لــاــ يــكــوــنــ مــنــتــنــاــ بــمــعــنــىــ كــرــيــهــ الــرــاــحــةــ وــ لــكــنــهــ يــكــوــنــ مــتــخــمــراــ . وــ بــعــدــ عــمــلــيــةــ التــشــكــيلــ أــيــ صــنــعــ الشــكــلــ الــمــرــاــدــ تــفــيــذــهــ فــيــجــبــ تــرــكــ الطــيــنــ الــمــشــكــلــ فــيــ مــكــاــنــ خــاــصــ لــكــيــ يــجــفــ . وــ عــمــلــيــةــ الــجــفــافــ تــتــنــمــ فــيــ مــكــاــنــ بــعــدــ عــنــ تــيــارــاتــ الــهــوــاءــ الــمــبــاــشــرــةــ ، يــتــحــوــلــ عــنــهــ الشــكــلــ إــلــىــ طــيــنــ جــافــ ذــوــ شــكــلــ قــدــ تــســمــعــ لــهــ تــوــصــيــلــاــ لــلــصــوــتــ إــذــاــ كــانــ الطــيــنــ نــقــيــةــ . وــ كــلــمــةــ لــازــبــ كــتــعــرــيفــ عــمــلــيــ لــهــاــ مــنــ خــلــالــ التــخــصــصــ تــعــنــيــ طــيــنــ لــيــنــ قــاــبــلــ لــلــتــشــكــيلــ)ــ . حــيــثــ أــنــهــ لــيــســ جــمــيــعــ أــنــوــاعــ الطــيــنــاتــ لــازــبــةــ وــ لــيــســ كــلــهاــ قــاــبــلــ لــلــتــشــكــيلــ)ــ . وــ ذــكــرــ كــلــمــةــ الــلــدــوــنــةــ وــ تــقــابــلــهــ بــالــلــغــةــ الــاــنــجــلــيــزــيــةــ كــلــمــةــ Plasticityــ هــيــ أــيــضــاــ مــنــ خــصــائــصــ الطــيــنــ الــقــاــبــلــ لــلــتــشــكــيلــ وــ الــذــيــ يــكــتــســ هــذــهــ الصــفــةــ مــنــ خــلــ عــلــمــيــةــ التــخــمــرــ الســاــبــقــةــ الذــكــرــ .

أــســأــلــ اللــهــ الســدــادــ وــ الــعــافــيــةــ .
أــرــجــوــ أــنــ يــكــوــنــ مــاــ ذــكــرــهــ ذــوــ فــائــدــةــ ، مــعــ تــحــيــاتــيــ لــلــجــمــيــعــ .

الــشــبــهــةــ الــثــالــثــةــ :

يــؤــكــدــ الــقــرــآنــ أــنــهــ لــاــ يــمــكــنــ لــلــمــلــاــكــةــ أــنــ تــعــصــيــ اللــهــ (ــ66ــ :ــ6ــ)ــ وــ مــعــ ذــكــرــ فــقــدــ عــصــىــ إــبــلــيــســ الــذــيــ كــانــ مــنــ الــمــلــاــكــةــ ، كــمــاــ فــيــ الــآــيــةــ (ــ2ــ :ــ34ــ)ــ فــيــهــاــ صــحــيــحــ؟ــ

الــجــوــاــبــ :

الــمــلــاــكــةــ مــخــلــوقــاتــ مــجــبــوــلــةــ عــلــىــ طــاعــةــ اللــهــ وــ عــبــادــتــهــ وــ التــســبــيــحــ لــهــ وــ بــهــ . فــمــ لــاــ يــعــصــونــ اللــهــ ، ســبــحــانــهــ وــ تــعــالــىــ :ــ{ــيــاــأــيــهــاــ الــذــيــنــ أــمــتــوــاــ فــوــاــ أــنــفــســكــمــ وــأــهــلــيــكــمــ نــارــاــ وــقــوــدــهــاــ النــاســ وــالــحــجــارـــ}ــ عــلــيــهــاــ مــلــاــكــةــ غــلــاظــ شــدــادــ لــاــ يــعــصــونــ اللــهــ مــاــ أــمــرــهــمــ وــيــقــعــلــوــنــ مــاــ يــؤــمــرــوــنــ}ــ (ــالــتــحــرــيــمــ :ــ6ــ)ــ . وــ مــعــ تــقــرــيرــ هــذــهــ الــآــيــةــ أــنــ هــؤــلــاءــ الــمــلــاــكــةــ الــقــائــمــينــ عــلــىــ النــارــ {ــلــاــ يــعــصــونــ اللــهــ مــاــ أــمــرــهــمــ وــيــقــعــلــوــنــ مــاــ يــؤــمــرــوــنــ}ــ . يــقــرــرــ الــقــرــآنــ الــكــرــيــمــ أــنــ إــبــلــيــســ - وــ هــوــ مــنــ الــمــلــاــكــةــ - فــيــ قــمــةــ

العصيان و العصاة : } وَإِذْ قَاتَلَ الْمَلَائِكَةَ اسْجَدُوا لِلَّادِمَ فَسَجَدُوا إِلَيْهِ إِبْلِيسَ أَبِي وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ
منَ الْكَافِرِينَ } (البقرة : 34) .

و هناك إمكانية للجمع بين معانٍ الآيتين ، و ذلك بأن نقول : إن عموم الملائكة لا يعصون الله ، سبحانه و تعالى ، فهم مفطرون و مجبولون على الطاعة . . لكن هذا لا ينفي وجود صنف هم الجن - و منهم إبليس ، شملهم القرآن تحت اسم الملائكة - كما وصف الملائكة أيضاً بأنهم جنة - لخوائصهم و استثارتهم - . . و هذا الصنف من الجن ، منهم الطائعون و منهم العصاة . .

و في تفسير الإمام محمد عبد الله (1265-1849هـ 1905م) لآية سورة البقرة : 34 -
يقول :

"أي سجدوا إلا إبليس ، و هو فرد من أفراد الملائكة ، كما يفهم من الآية و أمثلتها في القصة ، إلا أن آية الكهف فإنها ناطقة بأنه كان من الجن . . و ليس عندنا دليل على أن بين الملائكة و الجن فصلاً جوهرياً يميز أحدهما عن الآخر ، و إنما هو اختلاف أصناف ، عندما تختلف أوصاف . فالظاهر أن الجن صنف من الملائكة . و قد اطلق القرآن لفظ الجنة على الملائكة ، على رأي جمهور المفسرين في قوله تعالى : {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا} (الصافات : 158) و على الشياطين في آخر سورة الناس" (1) .

و نحن نجد هذا الرأي أيضاً عند القرطبي - في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) - فيقول : "وقال سعيد بن جبير: إن الجن سبط من الملائكة خلقوا من نار وإبليس منهم، وخلق سائر الملائكة من نور. . . و الملائكة قد تسمى جنة لاستثارتها، وفي التنزيل: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا} (الصافات: 158) ، وقال الشاعر في ذكر سليمان عليه السلام:

و سخر من جن الملائكة تسعه :: قياماً لدِيهِ يعمِلُونَ بلا أجر" (2)
فلا تناقض إذاً بين كون الملائكة لا يعصون الله . . و بين عصيان إبليس - و هو من الجن ،
الذين أطلق عليهم اسم الملائكة - فهو مثل الجن هؤلاء منهم الطائعون و منهم العصاة.

-
- (1)الأعمال الكاملة للإمام محمد عبد الله ج4 ص133 . دراسة و تحقيق : د. محمد عماره .
طبعة دار الشروق . القاهرة سنة 1414هـ 1993م .
- (2)الجامع لأحكام القرآن) ج 1 ص294-295 - مصدر سابق - .
-
-

الشَّبَهَةُ الرَّابِعَةُ

كل المخلوقات في السموات والأرض طائعة و قاتنة لله تعالى . (30 : 26) و مع ذلك نجد
حالات كثيرة من عدم الطاعة من جانب البشر (مثلاً : 69 : 10) ..

الجواب:

كل المخلوقات ، في السموات والأرض ، طائعة و قانتة لله ، سبحانه و تعالى : { **وَلَهُ مَنْ**

فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّهُ قَانِتُونَ } (الروم : 26) .

فهم قانتون لله ، أي خاضعون و مطيعون لإرادته ، سبحانه و تعالى . . .

و مع ذلك يشهد الواقع ، و تحكي الآيات القرآنية الكثير عن حالات العصيان و عدم الطاعة من جانب البشر . . و ذلك من مثل قوله سبحانه : { **وَجَاءَ فَرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلُهُ وَالْمُؤْتَكَفُونَ**

بِالْخَاطِئَةِ (9) **فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخْذَهُمْ أَخْذَةً رَأْيَةً** } (الحقة : 9-10) .

ففي هذه الآية وحدها إشارات إلى عصيان فرعون . . و عصيان من سبقه من المؤتكفات - أي قرئ قوم لوط - الذين أخذهم الله أخذة رأبية ، أي زائدة في الشدة على غيرها . .
بل إن تاريخ الإنسانية هو صراع بين أهل الطاعة و أهل العصيان . . حتى أن المؤثر النبوى الشريف قد تحدث عن أن كل بني آدم خطاء ، و خير الخطائين التوابون . .

فكيف يتسلق شيوخ العصيان في البشر ، مع الآية القرآنية التي تحدثت عن أن كل من في السموات والأرض قانتون - أي خاضعون و مطيعون - لله سبحانه و تعالى؟
إن مفتاح الإجابة عن هذا التساؤل ، هو فهم أنواع الإرادة الإلهية و القضاء الإلهي . . فالله سبحانه لا ي يريد العصيان ، و لا يقضى بالبشر . . لكن إرادته و قضاءه نوعان :

1- إرادة و قضاء تكويني و حتمي للمخلوقات غير المخيرة . . و ذلك مثل القضاء الذي تتحدث عنه الآية : { **فَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ** (9) **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَّ مِنْ فَوْقَهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَوْتَاهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ** سَوَاءً لِسَائِلِينَ (10) **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كُرْهًا** قالتا أتَيْنَا طائعينَ (11) **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَاهَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحَفَظَ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** } (فصلت : 12) . . و من مثل :

{ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } (البقرة : 117) .

ففي هذا اللون من الأمر الإلهي و القضاء الرباني تكون المخلوقات غير المختارة مجبولة على القنوت و الطاعة و الخضوع لله سبحانه و تعالى . .

2- إرادة و قضاء معهما تخيير . . و ذلك خاص بالإنسان المخير . . المكلف . . المسئول .

و الذي له - بسبب هذا التخيير و الحرية - حساب و جراء .

و إلى مثل هذا تشير الآيات : { وَقَضَى رَبُّكَ أَنَّا تَغْبُدُوا إِلَيْأَهُ وَبِالَّذِينَ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغُنَّ

عِنْدَكُمْ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقْنُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23)

وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الدُّلُّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبُّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَنِي صَغِيرًا } (الإسراء : 23)

24) .

فنحن هنا أمام قضاء إلهي ، شاء الله سبحانه و تعالى أن يترك للإنسان المخير إزاءه حرية الطاعة و العصيان ، ليتميز الخبيث من الطيب ، و ليكون الجزاء وفق العمل و الإرادة و الاختيار . . فالإنسان المخير ، الذي هداه الله النجدين ، له قدرات و استطاعات الطاعة و العصيان . . و لذلك ، كان من جنس الإنسان المؤمن و الكافر ، و المطيع و العاصي ، و من يبتغي وجه الله ، و من يبتغي غير دين الله . . بينما المخلوقات غير المختارة مجبولة على الطاعة و الخضوع { أَفَغَيْرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } (آل عمران : 83) ، { وَلَهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظَلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ } (الرعد : 15) ، { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ إِنْتُنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } (فصلت : 11) .

ففي مخلوقات الله مخلوقات مجبولة على الطاعة و الخضوع . . و في هذه المخلوقات ، منهم من يطيع و منهم من يختار العصيان ، فيبتغي غير دين الله !

الشَّبَهَةُ الْخَامِسَةُ

توضّح كثيّر من سور القرآن أن السموات و الأرض قد خلقت في ستة أيام . و هنا مشكلتان :

الأولى أنه من الثابت علمياً أن خلق السموات و الأرض قد استغرق بلايين السنين .

و الثانية : أنه في التعبير القرآني نفسه كانت مدة الخلق ثمانية أيام بدلاً من ستة (41 : 9 -

. . 12)

فكيف يمكن التوفيق بين هذه الآيات؟

الجواب:

في كثير من السور القرآنية تتحدث آيات كثيرة عن خلق الله ، سبحانه و تعالى ، السموات والأرض و تقدير ما فيهما في ستة أيام . . و من هذه الآيات :

{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} { (الأعراف : 54 - و يونس : 3) .

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} { (هود : 7) .

{الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} { (الفرقان : 59) .

{(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} { (السجدة : 4) .

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} { (ق : 38) .

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} { (الحديد : 4) .

و ليس هناك تعارض بين تحديد زمن الخلق للسموات والأرض في ستة أيام ، و بين ما يراه العلم من استغراق ذلك الخلق بلايين السنين ، ذلك أن المدى الزمني "لليوم" عند الله ، سبحانه و تعالى ، ليس هو المدى الزمني القصير "لليوم" في العرف و التقويم الذي تعارف عليه الإنسان في هذه الحياة الدنيا . . و في القرآن آيات شاهدة على ذلك ، منها :

{أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرِيبٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عَرْوَشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتَهَا فَأَمَّا هُنَّ اللَّهُمَّ مِنْهُ عَامٌ ثُمَّ بَعْثَةٌ قَالَ كُمْ لَبِثَتْ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ كُمْ لَبِثَتْ مِنْهُ عَامٌ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسْتَهِ - (لَمْ يَتَغَيِّرْ) - وَانظُرْ إِلَى حَمَارَكَ وَلَنْجُوكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعَظَامِ كَيْفَ تُنَشِّرُهَا - (أَيْ نَرْفَعُهَا مِنَ الْأَرْضِ لِنَوْلَفُهَا) - ثُمَّ نَكْسُوُهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَبِيرٌ} { (البقرة : 259) .

بعض اليوم ، في حساب الإنسان - هنا - بلغ مائة عام . . أي قرابة 37000 يوم او كذلك الحال في قصة أهل الكهف . . فما حسبوه يوماً او بعض يوم قد بلغ ثلثمائة عام بالتقويم الشمسي و ثلاثة و تسعه أعوام بالتقسيم القمري . . **{قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ}** { (الكهف : 19) . } **{وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثًا مِنْهُنَّ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ وَأَرْبَعُهُمْ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ قَالَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ عَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلَيْ** (25) **{وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا}** { (الكهف : 26-25) .

و كذلك الحال يوم ينفح في الصور - يوم البعث - يحسب بعض المجرمين أن مكثهم في الدنيا لم

يتجاوز عشر ليال . . بينما يحسب آخرون منهم أن مكثهم لم ي تعد اليوم الواحد : {يَوْمَ يُنْقَلُ فِي الصُّورِ وَتَحْشِرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَذِي زُرْقَا} (102) **يَتَخَافَّوْنَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَيَشْ إِلَّا عَشْرًا** (103) نحن أعلم بما يقولون إِذْ يَقُولُ أَمْتَلُهُمْ طرِيقَةَ إِنْ لَيَشْ إِلَّا يَوْمًا} (طه : 102-104).

أما عند الله ، سبحانه و تعالى ، فإن مصطلح "اليوم" مدى لا يعلم حقيقة طوله و أمده إلا هو : {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَكُنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدُهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَالْفِ سَنَةٌ مِمَّا تَعْدُونَ} (الحج 47) الآية لا تحدده بألف سنة مما نعد نحن في تقويمنا . . و إنما تستخدم أداة التشبيه - الكاف - (كالـ) - ليظل المدى غير معلوم لنا في هذه الحياة . . و غير ممكن التحديد بوحداتنا نحن في القياس الزمني . . في يوم الدين - الجزاء - . . و أيام الله . . و الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات و الأرض . . مداها - بمقاييس أيامنا نحن - لا يعلمها إلا الله ، سبحانه و تعالى . . ثم إن ما اكتشفه العلم من سرعات للصوت . . و سرعات للضوء . . و زمن الضوء - سنة ضوئية - يجعل تفاوت و اختلاف المفاهيم و المقاييس لمصطلح "اليوم" أمراً مقرراً و مألفاً . . هذا عن المشكلة الأولى من مشكلتي السؤال . .

أما المشكلة الثانية - من مشكلتي السؤال - و الخاصة بحديث بعض الآيات القرآنية عن أن الخلق للسموات و الأرض قد يفهم أنه استغرق ثمانية أيام ، و ليس ستة أيام . . و هي آيات سورة فصلت : {فَلَمْ يَنْتَكِمْ لِتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ} (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَّ مِنْ قَوْقَهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اتَّقِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَاهَا وَرَيَّنَا السَّمَاءَ الْدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفَاظًا ذَلِكَ تَدْبِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} (فصلت : 9-12).

هذه "المشكلة" لا وجود لها : فليس هناك تناقض و لا تفاوت بين المدة الزمنية التي جاءت في هذه الآيات و بين الآيات الأخرى التي ورد فيها تحديد الأيام الستة . .

ففي هذه الآيات - من سورة فصلت - نجد أن الله ، سبحانه و تعالى ، يخبرنا بأنه :

{خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ}

ثم {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَّ مِنْ قَوْقَهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} في تمام {أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ} . . أي في يومين آخرين يضافان إلى اليومين اللذين خلق فيهما الأرض ، فيكون المجموع أربعة أيام . . و ليس وارداً أن يكون خلق الرواسي و تقدير الأقوات قد استغرق أربعة أيام . . و لعل من توهם الشبهة - التي جاءت في السؤال - قد أنت من هناك . .

أي من توهם إضافة أربعة أيام إلى اليومين اللذين خلقت فيهما الأرض ، فيكون المجموع ستة . . .
و إذا أضيف إليها اليومان اللذان خلقت فيهما السماء - {**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنَ**} -
يكون المجموع ثمانية أيام ، وليس ستة أيام . . لكن إزالة هذه الشبهة متحققة بإزالة هذا الوهم .
فالأرض خلقت في يومين . . و خلق الرواسي و تقدير الأقوات قد استغرق ما تتم اليومين
أربعة أيام . . أي استغرق هو الآخر يومين . . ثم استغرق خلق السموات السبع يومين . . فكان
المجموع ستة أيام من أيام الله سبحانه و تعالى . .

و لقد نبه المفسرون على هذه الحقيقة - المزيلة لهذا الوهم - فقال القرطبي :
()"أربعة أيام" يعني في تتمة أربعة أيام. ومثاله قول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في
عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً؛ أي في تتمة خمسة عشر يوماً. (1)

و قال الزمخشري :

«**في أيام أربعة سواء** » فذلكة لمدة خلق الله الأرض وما فيها كأنه قال: كل ذلك في أربعة أيام
كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان.... وقال الزجاج: في أربعة أيام في تتمة خمسة عشر يوماً يزيد
بالنتمة اليومين. (3)

فهذه الآيات من سورة فصلت تؤكد - هي الأخرى - على أن خلق السموات والأرض إنما تم
في ستة أيام . . و من ثم فلا تناقض بين آيات القرآن و لا تناولت في مدة الخلق الإلهي للسموات
و الأرض . . و حاشا أن يكون شيء من ذلك في الذكر الحكيم.

(1)الجامع لأحكام القرآن) ج 15 ص 343 ، مصدر سابق .

(2)الذلكة : جملة ما فصل و خلاصته .

(3)الكاف (الكاف) ج 3 ص 444 ، مصدر سابق .

والحمد لله رب العالمين